توظيف الكرامات والغيبيات لتعظيم السلاطين من خلال كتب سير الحكام المفردة أبان العصر المملوكي (٦٤٨ – ٩٢٣ / ١٢٥٠ – ١٥١٧)

إيمان فرحان كاظم

أ.د. فاضل جابر ضاحي

جامعة واسط / كلية التربية

المقدمة :

تناولت الدراسة البحث في كتب السيرة المفردة للحكام خلال عصر المماليك ، والتي لاقت رواجا واضحا في مجال التأليف وظهر هناك العديد منها ، ركزت الدراسة على المبالغة بذكر الغيبيات والكرامات من خلال الظواهر الطبيعية أو المعجزات التي قد تحدث من باب المصادقة ، إلا ان المؤرخ عدها صورة من صور العظمة والفخر بسلطانه ، لتعظيم سيرته بالعبارات المزخرفة الرنانة ، وهذا يعد عامل ضعف لكتب سير الحكام المفردة والتقليل من أهميتها التأريخية .

أراد كتاب السير المفردة لا سيما الذين ألفوا للحكام توظيف الجوانب الغيبية من الظواهر الطبيعية وغيرها في خدمة الحكام والمبالغة في تمجيدهم وتفخيمهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره أحد المؤرخين واصفا إحدى زيارات نور الدين زنكي الى مدينة بعلبك بحلول البركة والخير إذ أمطرت السماء وإستمرت ثلاثة ايام و "قالوا هذا ببركة وحسن نيته وسيرته" (١) .

وكذلك ابن عبد الظاهر الذي علل زيادة نهر النيل وإستمرار زيادته ببركة السلطان حال دخوله الى أرض مصر (٢) ، وكرر المعنى نفسه عند تدوينه لسلطان آخر قوله "ففي جلوس مولانا السلطان خلد الله سلطانه إنحطت الأسعار من غير موجب إلا ببركة وجهه الميمون"(٣) وهو أمر طبيعي يرجع لزيادة نهر النيل فيعم الخير وتكثر المحاصيل وتهبط الأسهار ، وربط ابن ايبك الغلاء الذي حل بالديار المصرية والنقص الذي اصاب النيل بتنازل الناصر عن عرشه ، واستعرض مهارته الأدبية بكلمات على لسان نهر النيل قوله : "وعزة الرحمن ومن أجراني من الجنان وطهّر بي النجوس واحيا بي النفوس لو لا شيوخ ركّع وأطفال رضّع ودواب رتّع لتوقفت ولم أطلع ولو علمت أنّ

مصر بلا ناصر وخالية من نورها الباصر لما استبشرت مني بالجريان ولا اصبح فيها قاع ريّان" (٤) وجعل العيني أيضا زيادة نهر النيل ببركة السلطان المؤيد شيخ "زاد النيل المبارك بإذن الله خمسة عشر إصبعا ، وهذا شيء غريب لم يُعهد مثله إلا في النادر وهو بسعادة مولانا السلطان المؤيد" (٥) .

ومن جملة توظيف الأمور الغيبية احتسابها لشخص السلطان وتلميعا لتأريخه وسيرته الشخصية ما ذكره ابن عبد الظاهر عن سبب ضعف قوة التتار العسكرية سنة (٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م) اذ علل ذلك "ببركة مولانا السلطان وبوجهه السعيد الميمون الطلعة من هلاك ملوكهم وإنشغالهم بنفوسهم" (٦) ، وذهب ابعد من ذلك في وصف بركة السلطان المنصور وتأثيرها على اعدائه "وسعادة مولانا السلطان لهذا التأثير العظيم الجليل ، ولا بد من ذلك من إقامة دليل وذلك أنه مذ قام مولانا السلطان في مهمات الأمة الإسلامية ما برحت الأعداء في نقص ولا نصرت لهم راية وصاروا لمن خلفهم آية"(٧) ، وذكر جملة ممن مات من كبار التتار والفرنج وأرجع ذلك لبركة السلطان المنصور ، وتناسى أنّ لكل نفس أجلا مسمى والأقدار محددة من الله سبحانه وتعالى اذ قال عز وجل "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ" (٨) ، وفي سنة (٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م) ذكر أنه وقع خلاف بين التتار فأرجع المؤرخ سبب هذا الخلاف الى بركة السلطان الناصر "وهذا الخُلف الذي كان وقع بين التتار في ذلك الوقت مما يعتد به من جملة بركات تملك مولانا السلطان الملك الناصر عزّ نصره ، وبركة حلول أول ركابه الشريف" (٩) و ما ذكره ابن ايبك بعد خسارة المماليك في معركة الخزندار (١٠) سنة (٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م) ، بالغ المؤرخ بأن سبب الهزيمة لا يعود على السلطان وعزمه أو قوة المسلمين وحماسهم ، إنما القى اللوم على الخالق جل علاه بقوله "حصل تخاذل من الله عز وجل فهربت ميمنة المسلمين وتبعها من كان وراء السناجق السلطانية فصاروا من المنهزمين ، وإنتصرت الطغاة البغاون" (١١) ، أوقعت هذه المغالات المؤرخ في المحظور بوصفه أراد ان يبعد سبب الخسارة في المعركة عن مسؤولية السلطان وانه لم يكن من المقصرين وان هذا الذي حدث من الله سبحانه وتعالى .

غالبا ما توظف الظواهر الطبيعية في كتب سير الحكام بأنها مُسخّرة لخدمة السلطان من قبل الخالق سبحانه ، ومنهم السلطان المنصور إذ اجتهد مدون سيرته بقوله : "وإن السلطان بالملائكة يقاتل ومن جملة أعوانه الزلازل" (١٢) ، في حين نجد نصا لدى ابن القاضي شهبة أكثر إنصافا في وصف موجة الزلازل التي إجتاحت الشام مدة حكم

نور الدين زنكي بقوله "والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك وتحقيق تفاصيله" (١٣) على الرغم مما نتج من تهديم وتخريب وتدمير ، وإكمالا لما ذكره نجده ذكر عدد الضحايا في تلك الزلازل بنحو الف الف ومائة ألف إنسان (١٤) ، لا نعرف من اين حصل ابن قاضي شهبة على هذه الإحصائية الدقيقية ! .

اتجه أغلب مؤرخي سير الحكام بإتجاه الريح في توظيف الحوادث والظواهر الطبيعية كيف ما شاءوا ، حتى وإن كانت تلك الظواهر قد سببت هلاكا أو أضرارا بشرية أو مادية ، فمثلا ما أصاب مصر سنة (٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م) من زلازل عدها ابن عبد الظاهر رحمة للعالمين ، كونها وقعت في ايام دولة السلطان المنصور ! (١٥) كيف لا نعرف ؟، وسلك ابن أخته نهجه وإسلوبه نفسه عند تدوينه سيرة المنصور ايضا ، فذكر "إلى أن ملك مولانا السلطان وعلم العدو من التتار والفرنج أنّ الملائكة له من جملة الأعوان ، وأنه كان فرعا لا يطاق فكيف وقد صار أصلا ، وتبعا لا يحمل وإن كان من تابعه أكبر نبلا" (١٦) ، أما السلطان الناصر محمد فلم يقصر مدونو سيرته في اغداقه بأنواع المديح والمبالغة فيه حتى أنّه خرج من المالوف والطبيعي ونقله من مرتبة البشر العاديين الى درجة الأنبياء و الأولياء ، يتضح ذلك من قوله : "جلال مولانا السلطان الملك الناصر المؤيد بالملائكة والقرآن الذي ليس في طالع سعده قِران فلو كان لبشر في الفلك مكان لكان ظهر جواده في السماكان والمجرة له ميدان وكإيوان له إيوان" (١٧) ، وأضاف في مستهل كتابه "ذكر مناقب سيد ملوك الأتراك التي تضيق عن حصر جملتها الخواطر ، فكيف تحصرها الأقلام والدفاتر ؟ فاخترنا الله تعالى وأنشأنا هذا الجزء اللطيف المعان ، يشتمل على بقية ذكر بعض مناقبه الحِسان ، التي جملتها كعدد نجوم الآفاق ، وكضياء الشمس بهجة وإشراق فكيف يسعها دفاتر وأوراق" (١٨) ، وقوله بأنّ له ملائكة مكلفين بحفظه "له معقبات من بين يديه ومن خلفه" (١٩) و "قد حفت به الملائكة المقربين من كل ملك كريب" (٢٠) ومع ما قاله من التعظيم والتبجيل الا انه اعتذر في النهاية عن التقصير بقوله : "فإن الألفاظ مخلوقة والمعاني مسبوقة اليها ومسروقة ، والإنسان فقصير اللسان عن بديع البيان ، والإعتراف بالعمر إنصاف ويقوم مقام الإدراك بلا خلاف ، فالواجب على الأديب الحر ان يقبل العذر ويسامح بالسقطات" (٢١) ، وفي نهاية الكتاب أفرد ابوابا لبيان منجزات السلطان الناصر على الاصعدة أجمع وغالى بمفردات الثناء والمديح المنمق واعتذر عن التقصير بقوله : " وإن أطنبنا في وصف بعض مناقبه كان اللفظ قاصر ، سيدنا ومولانا ومالك رقّنا السلطان الأعظم الملك الناصر ، فانظر ايها الفاضل بعين الإنصاف ودع الجدل والخلاف فهل رأيت مذ مكنه الله من رقاب أعدائه

المتمردين ، من خلل وقع في أمر هذا الدين ؟ أو في حادث يشين زمانه ، أو من قحط وجوع وغلاء حصل في أوانه أو من خوف عدو نخشاه ؟ كلا والله ما كان هذا قط في أيام دولته وحاشاه فالحمد لله الذي خصنا ، إذ جعلنا من امة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وخلقنا وأحيانا في ايام دولة وليه محمد السلطان الأعظم الملك الناصر" (٢٢) ، القارئ للنص أعلاه والمتمعن فيه عند مقارنته مع عصر السلطان الناصر يجده محشو بالمديح الزائف الغير صحيح ، كونه زاد وبالغ في وصف أيام الناصر ونزهها عن كل شائبة من هجوم عدو أو قحط ومجاعة ، وتناسى ما حدث من هجمات التتار والفرنج وايام القحط والجوع التي حلت بمصر عندما انقطع المطر وشح نهر النيل ، وما تعرضت له البلاد من انقلابات داخلية أجبرت الناصر نفسه على التخلي عن العرش ، فضلا عَمّا عمله بعض الولاة الظلمة بالرعية من التعذيب ومن والغرامات والمصادرات وجميعها بموافقة ورضا السلطان الناصر (٢٣) ، وفي أحدى مخطوطات تراجم السير سلك مدونها الطريق نفسه في توظيف الجوانب الغيبية لصالح السلطان وعصره ، فذكر انه عند تولي السلطان برقوق العرش مطرت الدنيا وعدَ هذا الجانب من باب رحمة الله التي رافقت وصول السلطان للحكم (٢٤) ، ليس هذا حسب ، بل جزم قائلا أن في السنوات السابقة لحكم برقوق قد أجدبت الأرض وشحت الأمطار "وليس بخاف ما حصل في بلاد الحجاز الشريف من الجدب وتأخر الأمطار عنهم عدة سنين ، حتى بيع القمح في المدينة الشريفة كل غرارة بخمس من المئين ، وفي ايامه الشريفة أُمطروا مطرا أخصبت به البلاد وطابت الرخا نفوس العباد" (٢٥) ، وابتعد اكثر بقوله إنّ من جملة سعاداته أنّه منذ إعتلائه العرش لم يمرض شخص ولا حصل توعك لصحة أي فرد "لم يحصل لأحد من أهل مصر توعك في ربيع ولا في خريف بعد أن كان فيما مضى يعاد بهم الوبا في أحد هذين الفصلين" (٢٦) أمن المعقول أن العامة تمتعت بصحة تامة طوال مدة حكم برقوق التي ليست بالقصيرة ، ثم من اين له هذه الإحصائية التي خرج بها بهذه نتيجة ! واعطى تعليلا لهذه الظاهر إستنادا إلى أمور غيبية بقوله "وأصلح الله بصلاح مليكهم لهم الأحوال وأجرى لهم النيل من دون توقف" (٢٧) ، وللمفارقة العجيبة أنّ الذي حصل زمن السلطان برقوق على العكس تماما ، وإن أهم ما يميز مدة حكمه هو القحط والجفاف وتفشي الطاعون حسبما بينا في بداية الدراسة ، وعند مراجعة كتاب السيرة الآخر للسلطان نفسه نجد ما يثبت ذلك إذ ذكر إبن صصري إن في سنة (٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م) حصل "حصار وخوف وغلاء وقلة ماء وبرد فنسال الله تعالى أن يرد العاقبة الى خير" (٢٨) و "لقلة الماء والمطر في هذا الزمان غلت الأسعار وأبيع القمح في هذا الشهر المذكور بثلاثمائة درهم وأكلت الناس الشعير ، وأبيعت عشرة أرطال الطحين من الشعير بمبلغ خمسة عشر درهما

وأكثر" ([٢٩]) ، لا بل راح المؤرخ أكثر من هذا في وصفه لتلك الحقبة من تأريخ المماليك اذ قال "وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات ما لم نكن نراه وسمعنا فيه ما لا سمعناه ، وأبصرنا عجائب وشاهدنا غرائب ، فلهذا الحال قلت الأرزاق ، وكسدت بضائع الأسواق ، وقل نزول الغيث ، وتعطلت اسباب الناس ، وقست قلوب الملوك ، وتجبر الغني على الصعلوك" ([٣٠]) يا لها من شجاعة التي أوصلت المؤرخ لوصف زمان سلطانه بهذا الوصف القاسي وهذا إن دل على شي فأنه يدل على ما يحمله المؤرخ من صفات المؤرخ الجيد الحيادي الصادق ٠

عد إبن عربشاه سلطانه ممن يتصف بصفات الأولياء وأكثر ولم يجمعها الله سبحانه في شخصه لولا إطلاعه على "حسن نيته وطهور طويته ، ولما جبله الله تعالى عليه من طاهر الشيم الآتي ذكرها التي لا يحصل بعضها لخواص الأولياء" ([٣١]) .

الملخص

في النهاية توصل البحث الى العديد من النتائج أهمها

- راج فن كتابة التراجم لاسيما كتب السير المفردة للسلاطين أبان العصر المملوكي .
- تميز أغلب مؤرخو كتاب سير الحكام بطابع التملق ، والإكثار من المبالغات في المديح بغية الحصول على رضا السلاطين .
- أغلب من كتب عن سير الحكام في تلك الفترة هم من عاصر السلاطين أصحاب السير .
- يعد هذا الجانب عامل سلبي وضعف ، كونها أثقات هذه الكتب التأريخية بالعديد من صفحات المبالغة من المديح والثناء والتي لا تخدم دارس التأريخ .

المصادر والمراجع

أولا – المخطوطات

- ابن عبد الظاهر ، محي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٣ هـ / ١٢٣٩م)
- الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ، المكتبة الشاملة ، الرقم التسلسلي ، ٧٢٣٣٠ .
- إبن عقيل ، محمد بن عقيل (المتوفي في القرن التاسع الهجري)
- الدر النضيد في مناقب الملك الظاهر أبي سعيد ، نسخة محفوظة بجامعة الإمام محمد بن سعود ، ، دار إحياء التراث العربي ، الرياض ٠

ثانيا – المصادر العربية

- ابن ايبك ، ابو بكر عبد الله بن ايبك الدواداري (ت ٧٣٦ هـ / ١٤٣٢ م)

_ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، (القاهرة – ١٩٦٠)

- شافع بن علي ، شافع بن علي بن عباس (ت ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م)

_ الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين إبي الفتح قلاوون خلد الله سلطانه ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، ط ١ ، المكتبة العصرية (بيروت – ١٩٩٨ م) .

- ابن صصري ، محمد بن محمد بن صصري (ت بعد ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م)

_ الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، تحقيق د وليم ، م ٠ بريز ، مكتبة جامعة اليرموك ، ١٩٨١ م .

- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ابيك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م)

_ الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفي ، دار احياء التراث ، (بيروت – ٢٠٠٠ م) .

- ابن عبد الظاهر ، محي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ /

_ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٢ م .

_ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، ط ١ ، (الرياض – ١٩٧٦ م) .

- ابن عربشاه ، أحمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٨٥٤ – ١٤٥٠ م)

_ التأليف الطاهر في سيرة الملك الظاهر جقمق ، تحقيق ودراسة محمد شعبان عبد الحميد ، ط ١ (القاهرة – ٢٠١٦) .

- العيني ، محمود بن احمد بدر الدين (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)

_ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم محمد علوش، دار الكتب المصرية (بيروت – د ٠ ت)

- ابن قاضي شهبة ، بدر الدين بن القاضي شهبة

_ الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، (د٠ ت – د٠ م)

- اليوسفي ، موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي (ت ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م)

_ نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق الدكتور احمد حطيط ، ط١ ، (بيروت – ١٩٨٦ م)

[١]) ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٣٤ ٠
[٢]) الروض الزاهر ، ص ١٧٧ ٠
[٣]) ابن عبد الظاهر ، الألطاف الخفية ، ورقة ٦٨ ٠
[٤]) ابن ايبك ، الدر الفاخر ، ص ١٦٣ – ١٦٤ ٠
[٥]) السيف المهند ، ص ٣٣٣ ٠
[٦]) تشريف الايام ، ص ٥٧ ٠
[٧]) المصدر نفسه ، ص ٥٨ ـ ٥٩ – ٦٠ ٠
[٨]) سورة الأعراف ، آية ٣٤ .
[٩]) ابن ايبك ، الدر الفاخر ، ص ٩ ٠
[١٠]) معركة الخزندار : معركة دارت رحاها بين التتار بقيادة غازان والمماليك بقيادة الناصر محمد ، انكسرت ميمنة المسلمين وكان النصر حليف التتار الذين كانوا متفوقين بالعدد والعدة ٠ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٤ / ص ٢٥٤ ٠
[١١]) الدر الفاخر ، ص ٦ – ٧ ٠
[١٢]) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام ، ص ١٥٢ ٠
[١٣]) الكواكب الدرية ، ص ١٥١ ٠
[١٤]) المصدر نفسه والصفحة .
[١٥]) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام ، ص ١٥١ ٠
[١٦]) شافع بن علي ، القول المأثور ، ، ص ٩٣ ٠
[١٧]) ابن ايبك ، الدر الفاخر ، ص ٣ ٠
[١٨]) المصدر نفسه ، ص ٦ ٠
[١٩]) ابن ايبك الدر الفاخر ، ص ٨٢ ٠
[٢٠]) المصدر نفسه ، ص ٨٤ ٠
[٢١]) المصدر نفسه ، ص ٥ ٠
[٢٢]) المصدر نفسه ، ص ٣٨٧ ٠
[٢٣]) اليوسفي ، نزهة الناظر ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ – ٤٥٥ . للاطلاع أكثر مراجعة الفصل الثالث من هذه الدراسة ٠
[٢٤]) محمد بن عقيل ، الدر النضيد ، ورقة ٧٥ .
[٢٥]) المصدر نفسة والورقة ٠
[٢٦]) المصدر نفسه ، ورقة ٧٦ ٠
[٢٧]) المصدر نفسه ، ورقة ٧٦ ٠
[٢٨]) الدرة المضيئة ، ص ٤٣ ٠
[٢٩]) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ ٠
[٣٠]) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ ٠
[٣١]) التأليف الطاهر ، ص ٢٦٢ ٠